دلالات التعبير القرآني
وأثرها التربوي والأخلاقي
قصة امرأة عمران وابنتها أنموذجا

د. أمل إسماعيل صالح صالح
أستاذ مساعد قسم الدراسات القرآنية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة طيبة
المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية

ملخص البحث:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد،

فهذا بحث حول قصة امرأة عمران وابنتها مريم، وجعلها وابنها آية، وما رافق ذلك من أحداث بينتها آيات كريمة في سور عدة، ودراسة تلك الآيات ؛ لبيان دلالات التعبير القرآني، واستنباط آثار تربوية وأخلاقية تنير طريق المؤمنات؛ لتربية أجيال صالحة تحمل لواء التوحيد، وتواجه ظلمات الجهل والمعاصي أثناء سيرها في الحياة، وقد وصف القرآن بالنور، ومنه هذه الآيات موضوع البحث؛ والتي تُظهر ما في هذا الكتاب العزيز من غناء وثراء في النماذج المؤمنة التي تحدث عنها ؛ يستنير به المتدبر الذي يسير على هداية القرآن، ويصل إلى علوم واستنتاجات وتوجيهات، من خلال آياته الكريمات بتراكيبها وقوالبها اللغوية التي صيغت بها.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين،الرحمن الرحيم، الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه، حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، أحمده سبحانه؛ كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام التامان الأكملان على سيدنا محمد ﷺ نبي الهدى،الرحمة المهداة والنعمة المسداة، النبي المجتبى والحبيب المرتضى، وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن خير ما تُلي وفسر كتاب الله تعالى، وهو أكثر وأعظم كتاب حاز اهتمام الباحثين المتدبرين ؛ لأنه كتاب إلهي معجز وصفه العليم الحكيم؛ بأنه مبارك ؛ كثير المنافع والفوائد، وهو العين المعين والنبع الصافي، وقد قمت بهذه الدراسة حول دلالات التعبير القرآني لآيات ترتبط بقصة امرأة عمران وابنتها مريم، من سورة آل عمران، وسور أخرى، وبيان آثارها التربوية والأخلاقية.

حدود الدراسة :

هذه الدراسة تتعلق؛ بدلالات التعبير القرآني وأثرها التربوي والأخلاقي في قصة امرأة عمران وابنتها مريم، وما رافق ذلك من أحداث بينتها آيات كريمة في سور عدة؛ كسورة آل عمران وسورة مريم آية وسورة الأنبياء وسورة التحريم آية.

أهمية الموضوع :

١- أنه يتعلق بإظهار أنموذج لامرأة صالحة وابنتها التي ضربت مثلا ؛ ويظهر ما في هذا الكتاب العزيز من غناء وثراء في النماذج المؤمنة التي تحدث عنها؛ وليقتديَ المؤمنون بالنماذج الصالحة التي عرضها القرآن الكريم.

٢- بعد دراسة الآيات المشار إليها، سيُظهر البحث دلالات للآيات ؛ لها أثارها التربوية والأخلاقية من خلال النظم والقوالب اللغوية التي صيغت بها الآيات الكريمة.

سبب اختيار الموضوع :

السبب الرئيس في اختيارِ هذا الموضوع للبحث ؛ ما استحوذ على تفكيري من ضرورة النظر والتدبر في آيات من القرآن، ودراسة دلالات التعبير القرآني ؛ لبيان واستنباط آثار تربوية وأخلاقية من قصة لها ارتباط وثيق بدور المرأة في المجتمع ؛ فتكون نبراساً ينير الطريق، وبعد تفكير ونظر، وقع الاختيار على آيات تتحدث عن قصة امرأة عمران وابنتها مريم ؛ وجدت فيها إضاءات تنير طريق المؤمنات، وإنارات لهنَّ في طريق التربية ؛لإنشاء أجيال صالحة تحمل لواء التوحيد، وتواجه ظلمات الجهل والمعاصي بالنور المبين.

أهداف البحث:

١- استنتاج دلالات للتعبير القرآني من خلال آيات تحدثت عن قصة امرأة عمران وابنتها مريم، وبيان آثارها التربوية والأخلاقية، وتأثيرها الوجداني على النفس وما يتبعه من تعديل السلوك.

٢- استنباط وجه المناسبة بين الآيات الكريمة، والتناسب بين الآيات الكريمة وفواصلها،لإظهار إعجاز نظم الآيات الكريمة، واستنباط دلالات تربوية وأخلاقية ؛ ترتقي بها النفوس المؤمنة.

منهج البحث:

التأمل والتدبر؛ لبيان دلالات للتعبير القرآني وأثره التربوي والأخلاقي، من خلال حديث القرآن عن قصة امرأة عمران وابنتها مريم، واستنتاج وجه

المناسبة بين الآيات وما سبقها، وكذلك بيان المناسبة بين الآية وما يليها بعد نظر وتأمل، وبيان مناسبة فاصلة الآية مع مضمونها، وتفسير الآيات تفسيراً تحليلياً مع عدم الاستطراد،وإظهار إعجاز القرآن في حروفه وألفاظه.

ثم كتابة الآيات بالرسم العثماني وعزوها، وتوثيق القراءات،وتخريج الأحاديث،وتوثيق النصوص بالتنصيص عليها بين قوسين ( )عند الاقتباس الحرفي، وعند التصرف أشير بكلمة ينظر في الحاشية، والترجيح بين آراء العلماء، وفق القواعد العلمية.

الدراسات السابقة :

قمت بالبحث حول ما كتب عن الآيات الكريمة ؛فلم أجد كتاباً أو بحثاً مستقلاً بمثل المحاور التي كتبت فيها، وما كتب حولها-فهو على فضله،وعظيم نفعه-في كتب التفسير فقط. وكتاب الله مغدقٌ كثير النفع والبركة؛وقد رغبت في كتابة بحثٍ مستقل،أضيف فيه توضيحاتٍ واستنباطات لم أجدها في حدود ما اطلعت عليه ؛ راجية الفائدة والنفع.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في تمهيد، وثلاثة مباحث.

التمهيد

تسمية سورة آل عمران وفضلها :

سورة آل عمران مدنية وآياتها ٢٠٠. نزل صدرها إلى نيف وثمانين آية؛ لما قدم نصارى نجران المدينة المنوّرة يناظرون رسول الله صلّى الله عليه واله وسلّم في عيسى عليه السلام، وكان قُدُومُهُم فِي سنة تسع من الهجرة.[1]

وتسمية سورة آل عمران باسم تلك الفئة المؤمنة آل عمران،فيه دلالة على سمو منزلتهم عند الله تعالى، ووجه تسميتها أنه ذكرت فيها فضائلهم، ولذكر حيثية من قصتهم ترتبط بموضوع رئيس في السورة ؛وهو تقرير حقيقة الوحدانية، وإبطال مزاعم أهل الكتاب وافترائهم على الحق،وبيان القول الحق في ولادة عيسى عليه السلام، والرد على شبه أهل الكتاب، وفيها بيان معجزات عيسى عليه السلام وفيها مجادلة النبي صلى الله عليه وسلم مع النصارى واليهود.

عَنْ نَوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَأْتِي القُرْآنُ وَأَهْلُهُ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا تَقْدُمُهُ سُورَةُ البَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ» قَالَ نَوَّاسٌ: وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ قَالَ: «تَأْتِيَانِ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ وَبَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ سَوْدَاوَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا ظُلَّةٌ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَادِلَانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا» وَفِي البَابِ عَنْ بُرَيْدَةَ، وَأَبِي أُمَامَةَ: " وَمَعْنَى هَذَا الحَدِيثِ عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ أَنَّهُ يَجِيءُ ثَوَابُ قِرَاءَتِهِ، وَفِي حَدِيثِ النَّوَّاسِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَدُلُّ عَلَى مَا فَسَّرُوا؛ إِذْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

---

١ - ينظر:أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزيء الكلبي.التسهيل لعلوم التنزيل.١/١٤٤.تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي. الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت. ط:١ – ١٤١٦ هـ. وابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي،تفسير القرآن العظيم.٢/٣٥.تحقيق:سامي بن محمد سلامة.دار طيبة للنشر والتوزيع.ط٢،١٤٢٠هـ.

وَسَلَّمَ: «وَأَهْلُهُ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا» فَفِي هَذَا دَلَالَةٌ أَنَّهُ يَجِيءُ ثَوَابُ العَمَلِ." [1]

مناسبة الآيات (٣٥– ٣٧ من آل عمران) بما سبقها :

{إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيم* فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَاب}[آل عمران:٣٥-٣٧]

جاءت سورة آل عمران لتقرير حقيقة الوحدانية لله تعالى، ونفي الشريك له، وإبطال مزاعم أهل الكتاب، ومنها: زعمهم محبة الله وانتمائهم للأنبياء، وذلك واضح من سياق السورة الكريمة؛ فإذا كانوا صادقين في ذلك الادعاء ؛ فالواجب عليهم متابعة الرسول؛{قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيم} [آل عمران:٣١]

وقد علَّمَت السورة المسلم حقائق هامة؛ تتمثل في وجوب الطاعة لشرع اللّه والاحتكام لكتابه، والإتباع لرسوله ﷺ ، وشرعت قيماً وموازين نتعلمها ونمتثلها، ونتوارثها سلوكات قيمة في الحياة. ومن يعمل بتلك الحقيقة يكون محباً لله

١- ينظر:أبو عيسى الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة. سنن الترمذي .أبواب فضائل القرآن ، بَابُ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ،رقم الحديث،٢٨٨٣،٥/١٦٠.تحقيق وتعليق:أحمد محمد شاكر ،آخرون. الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر. ط-٢ ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م [حكم الألباني] : صحيح

حقاً،ويستحق محبة الله،{قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيم *قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِين} [آل عمران:٣١-٣٢]

وقد ضرب القرآن لنا أمثلة وذكر نماذج من المؤمنين، تمثلوا تلك الحقيقة واقعاً في حياتهم؛ فنالوا محبة الله تعالى وأولهم من اصطفاهم الله سبحانه؛{إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِين}[آل عمران: ٣٣] ثم كان الحديث عن امرأة عمران،وهي من آل عمران الذين أوجدهم الله خالصين من الشوائب الموجودة في غيرهم، وهذه الآيات تعرض صورة هامة من سيرة هذه النخبة المختارة من البشر، التي اصطفاها وجعلها ذرية بعضها من بعض. وتتمثل هذه الصورة المنيرة في خلوة امرأة عمران مع ربها ومناجاته في شأن حملها، وفي حديث مريم مع زكريا.

ومما يدل على مكانة آل عمران واستحقاقهم للاصطفاء ؛ كثرة ذكرهم في كتاب الله تعالى؛ فإن المرأة التي ذكرت في القرآن الكريم كثيراً هي مريم بنت عمران ؛ فقد ذكرت باسمها في أربع وعشرين موضعا، منها إحدى عشرة مرة ذكرت وحدها، وثلاث عشرة مرة ذكرت منسوباً إليها ابنها عيسى عليه السلام؛ للتأكيد على آية خلقه وقدرة الله تعالى على فعل ما يشاء؛ فقد خُلق بدون أب، وكثرة ذكرها فيه دلالة على منزلتها وفضلها، ولفت الانتباه لمعرفة سيرتها حتى كانت مثلا يضرب للذين آمنوا،وسميت سورة من القرآن باسمها.

سورة مريم ؛ تسميتها وفضلها:

سورة مريم مكية، وهي ثمان وتسعون آية. سميت «سورة مريم» لاشتمالها على قصة مريم ؛ حيث جاء فيها الأمر بـ{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ}، وقصة ولادتها لابنها عيسى عليه السلام من غير أب بتفصيل لم يرد في سورة أخرى،، وما تبع ذلك الحمل، ورافق ولادة عيسى من أحداث غير مألوفة، منها ؛كلامه بعبارات واضحة معجزة، تدفع عن أمه التهمة وتظهر الحق، وهو طفل في المهد. وقد ورد في فضلها عَنِ أُمِّ سَلَمَةَ فِي قِصَّةِ الْهِجْرَةِ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ مِنْ مَكَّةَ: أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَرَأَ صَدْرَ هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى النَّجَاشِيِّ وَأَصْحَابِهِ.[1]

١- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل،/٢٦٣ رقم،١٧٤٠تحقيق:شعيب الأرنؤوط- عادل مرشد، وآخرون مؤسسة الرسالة ط - ١-١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

المبحث الأول:

البلاغة القرآنية والأثر التربوي في قصة امرأة عمران وابنتها مريم

إن كل آية في كتاب الله تمتاز ببلاغتها ؛ حيث إيجاز لفظ ووفاء معنى، وهي خاصية في أسلوب القرآن ؛ وكان بيان القرآن لقصة آل عمران قد نزل في سور متعددة بنظم يشتمل على استعمال لحروف المعاني لإعطاء رسائل مفيدة، وألفاظ مقصودة بمعان محددة، وجمل بليغة موجزة، وتراكيب لغوية لها دلالاتها، منها :
قول الله جل وعلا :{إِذ قَالَتِ ٱمرَأَتُ عِمرَٰنَ}؛ عند النظر في الظرف (إذ) وهو من حروف المعاني التي لها دلالات ومعاني وافية، فـ (إذ) من الأدوات المخلصة للمضارع إلى الماضي؛ لأنها ظرف لما مضى من الزمان. وقد ذكر النحويون عدة احتمالات في نصبه، منها :(أنه « اذكر » مقدراً، فيكونُ مفعولاً به لا ظرفاً ؛أي : اذكر لهم وقتَ قول امرأة عمران كيتَ وكيتَ)[1] ؛ فالمقصد لفت الانتباه إلى الحدث الذي وقع وقت نذرت امرأة عمران في خلوتها تحرير وليدها من رق الدنيا وأشغالها؛ وذلك تعليم للأمهات في ضرورة التخطيط لمستقبل مولودها، وأهمية التفكير بحال الوليد بعد ولادته؛ ليكون ذرية طيبة وامتداداً للإيمان والصلاح، وهو دليل حب امرأة عمران لقيمة العطاء وحب استمرار الخير، ويستنتج من مجيء الظرف (إذ) أهمية استثمار الزمن وضرورة ملئه بما ينفع الإنسان من الخير قولاً أو فعلاً ؛ كما هو شأن المصطفين الأخيار.

ومما يدل على إيجاز لفظ ووفاء المعنى في الآية ؛ ما كان في نفس امرأة عمران من همٍّ تقبل الله تعالى نذرها، علماً أنها طاعة لا تقدر ولا تستطيعها عامة الأمهات ؛ فجاء على لسانها دعاء اقتدت فيه بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام؛ وهو يقوم بأشرف عمل ويرفع قواعد البيت ويدعو؛ ربنا تقبل منا ؛ وثمرة التقبل

١- السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ١٣١/٣، ط١ ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، دار القلم. وينظر: أبو حيان-محمد بن يوسف- البحر المحيط، ٧١٥/٣، ط١٤١٢هـ/١٩٩٢م، دار الفكر، بيروت.

الرضا من الله ثم الثواب، والمؤمن يبذل جهده في العمل الصالح ثم يطمع في تقبل الله عمله؛ لخوفه من رد ما عمل لتقصير أو ضعف، فالتَّقَبُّلُ : قَبُولُ الشيء على وجه يقتضي ثواباً، قال تعالى:{أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا} [الأحقاف/١٦]، وقوله جل شأنه: {إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}[المائدة/٢٧]، تنبيه أن ليس كل عبادة مُتَقَبَّلَةً ؛بل إنّما يتقبّل إذا كان على وجه مخصوص من الإخلاص والصدق.[١]

وثمة فرق بين القبول والتقبل؛ فإن القبول مصدر قولهم:قَبِلَ فلان الشيء قبولاً إذا رضيه، والتَّقَبُّل على وزن تفعل،فإنه يدل على شدة اعتناء ذلك الفاعل، بإظهار ذلك الفعل؛ كالتصبر والتجلد؛ فإنهما يفيدان الجِّد في إظهار الصبر والجلادة، وكذا التَّقَبُّلُ يفيد المبالغة في إظهار القبول.[٢] (والتقبل؛ أخذ الشيء على الرضا وأصله من المقابلة؛ لأنه يقابل بالجزاء وهذا سؤال من لا يريد بما فعله إلّا الطلب لرضا اللّه تعالى) [٣].

ومما يلفت الانتباه التناسب بين هذا الدعاء وفاصلة الآية:{إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} أي : السميع لجميع المسموعاتِ التي من جُملتها دعائي، العليم بكل المعلومات التي من زمرتها نيتي في كل أعمالي، والجملة تعليلٌ لاستدعاء التقبّل، لا من حيثُ أن كونه تعالى سميعا لدعائها عليماً بنيتها مصححٌ للتقبل في الجملة ؛ بل من حيثُ إنَّ علمَه تعالى بصحة نيتها وإخلاصِها في أعمالها مستدعٍ له بموجَب الوعدِ تفضُّلاً، وتأكيدُ الجملة لغرض كمالِ قوةِ يقينها بمضمونها، وقصرُ

١- ينظر:الراغب الأصفهاني؛ الحسين بن محمد بن المفضل، المفردات في غريب القرآن،١/٦٥٣. تحقيق:صفوان عدنان داودى دار العلم الدار الشامية.بيروت.١٤١٢ هـ.

٢- ينظر:الرازي؛ محمد بن عمر، مفاتيح الغيب.٤/٥١.دار إحياء التراث العربي . بيروت.

٣- الخازن، علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي. لباب التأويل في معاني التنزيل.تحقيق:تصحيح محمد على شاهين.١/٢٤٠.دار الكتب العلمية . بيروت.ط١٤١٥هـ.

نعْتَي السمع والعلم عليه تعالى؛ لإظهار اختصاصِ دعائها به تعالى وانقطاعِ رجائها عما سواه. [1]

ففاصلة الآية تأكيد على ما صدر منها من دعاء ؛ أي: ربي يقيني أنك أنت السميع للدعاء دون سواك، تسمع دعائي وتضرعي، وأنت وحدك العليم بحالي ونيتي، تعلم ما في قلبي من الإخلاص والمحبة، وترك زينة الدنيا وشهواتها، وأنت وحدك المتفضل بقبول العمل والطاعة.

ومثل هذا التناسب بين مضمون الآية وفاصلتها ؛ يلاحظه المتأمل في كتاب الله في جميع فواصل الآيات، وفيه دلالة على إعجاز الفاصلة القرآنية.

{فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ}[٣٦] في الآية تصوير بليغ لحالها ؛ وفيه دلالة على الحالة النفسية التي كانت فيها امرأة عمران ؛حيث انتظرت المولود ذكراً بناء على ما كان في نفسها عند نذرها، وللمؤمن أن يتخيل تلك الحالة النفسية وما يترتب عليها من تفاعل مع الأمر المغاير لما هو متوقع، والانفعال السريع مع الموقف من دلالة الفاء في؛ (فَلَمَّا) {فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى} ولا يقصد من هذه الجملة الإخبار؛ بل هو التحسر والتحزن والاعتذار عن كون المولود أنثى، وفي رأيها ونظرها لا يتناسب ذلك مع ما قصدته من نذرها في تحريره للخدمة في بيت العبادة.

وللقراءات القرآنية في الآية دلالتها في قوله تعالى ؛{ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} قرأ ابن عامر وأبو بكر : (والله أعلم بما وضعتُ) بضم التاء؛ جعلوها من كلام أم مريم، وحجتهم أنها قالت رب إني وضعتها أنثى ؛كانت كأنها أخبرت الله بأمر هو

١- ينظر:أبو السعود العمادي،محمد بن محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم.١/١٦١. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

أعلم به منها؛ فتداركت ذلك بقولها : (والله أعلم بما وضعتُ).[1] وفيها دلالة على إيمانها ويقينها بعلم الله وحكمته، والتأكيد على أنها تدرك أن لله حكمة في جعل المولود أنثى، وليس ذكراً، وستظهر تلك الحكمة فيما بعد. وقرأ الباقون : (والله أعلم بما وضعتْ) بسكون التاء ؛ من خطاب الله تعالى [2] ؛ فهو يعلم ما لتلك الأنثى من شأن لا تعلمه أمها، وفيه تعليم للمؤمن ليكون موقنا بصفات لله تعالى ومنها ؛ العلم والحكمة ؛ فهو العليم بكل شيء، والحكيم في كل ما يقدر ويقضي، ومنه خلق ذلك المولود أنثى وليس ذكراً ؛ لأن تلك الأنثى سيكون لها شأناً كبيراً، وميزة عظيمة على كثير من الرجال.

{وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ} جملة مؤكدة لها دلالاتها، فقد كانت التسمية بعد ولادتها وهذا مما يتوافق مع السنة النبوية، في اختيار اسم المولود بعد ولادته، ومريم في لغتهم معناه : العابدة، (وفي هذه التسمية تفاؤل لها بالخير، وتضرّع إليه بأن يكون فعلها مطابقا لاسمها).[3] وفعلها في تسمية المولود بعد ولادته يتوافق مع ما علمتنا إياه سنة نبينا صلى الله عليه وسلم ؛حيث جاء في الحديث عَنْ أَبِي مُوسَى – رضي الله عنه – قَالَ: وُلِدَ لِي غُلاَمٌ، فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَسَمَّاهُ إِبْرَاهِيمَ، فَحَنَّكَهُ بِتَمْرَةٍ، وَدَعَا لَهُ بِالْبَرَكَةِ، وَدَفَعَهُ إِلَيَّ، وَكَانَ أَكْبَرَ وَلَدِ أَبِي مُوسَى.[4]

١–ينظر: أبو زرعة، عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة. حجة القراءات. ١٦٠/١ مؤسسة الرسالة – بيروت.ط/٢. ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.

٢ – ينظر: المرجع السابق،١٦٠/١ .

٣– ينظر: الرازي؛ محمد بن عمر. مفاتيح الغيب. ٥١/٤.دار إحياء التراث العربي . بيروت.أبو حيان، البحر المحيط ٣/ ١١٨

٤ – أبو عبد الله البخاري، محمد بن إسماعيل ، صحيح البخاري، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة. كتاب، العقيقة،باب تسمية المولود غداة يولد، رقم٥٤٦٧. ٨٣/٧.

وقد طابق أفعال مريم البتول اسمها، فصارت صديقة ؛ كما وصفها ربها الكريم ؛{مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ}(٧٥/المائدة) صيغة مبالغة؛ أي:كثيرة الصدق. وقيل: سُميت صديقة لأنها صدقت بآيات الله ؛كما قال عز وجل في وصفها :"وصدقت بكلمات ربها"١٢(/التحريم) [١] ؛ فقد سعت واجتهدت لتبلغ تلك المنزلة ؛ فكانت من الصديقين الذين هم أعلى الخلق رتبة بعد الأنبياء ؛ فهي صديقة، وكفى بذلك فضلاً وشرفاً. وكانت صديقة ؛ لكثرة تصديقها بآيات ربها وتصديقها ولدها فيما أخبرها به وهي من تلازم الصدق وتبالغ في الاتصاف به في علاقتها مع الله، ومع نفسها، ومع الناس والمخلوقات حولها ؛ بما يرضي ربها. وفي ذلك توجيه للمؤمنين في تحري الصدق والعمل به في سلوكاتهم وحياتهم، طمعا في الوصول إلى مرتبة الصديقية التي تُعد مقصدا لهم، وشرفا ورفعة في الدارين. وقد حثنا رسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على العمل لبلوغ مرتبة الصديقية في قوله : «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا» [٢]

١- البغوي؛ أبو محمد الحسين بن مسعود ، معالم التنزيل. ٨٣/٣. حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش. دار طيبة للنشر.ط/٤. ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.ينظر : القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر.الجامع لأحكام القرآن. ٢٥١/٦. تحقيق : أحمد البردوني. دار الكتب المصرية – القاهرة.ط/٢. ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م.

٢- مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري. صحيح مسلم،كتاب البر والصلة،باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله،رقم: ٢٠١٣/٢٦٠٧. دار إحياء التراث. بيروت.

وبعد اختيار اسم مقصوده أداء رسالة للمولود ولمن حوله عند تربيته وتنشئته والتعامل معه، وفيه توجيه تربوي لكل والد أن يختار لولده اسم يسهم في حسن تربيته وصلاحه. ثم يأتي الدعاء للمولود وذريته؛ في جملة فيها إيجاز وبلاغة؛ {وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} من خلال النظر في نظم هذه الجملة الكريمة الموجزة، أجد لها أثرها التربوي الأخلاقي ؛ حيث جاءت مؤكدة بأداة التوكيد (إنَّ)، ثم الفعل المضارع الذي يفيد استمرارية الاستعاذة، وتقديم شبه الجملة(بك) على المعطوف (وَذُرِّيَّتَهَا)، وهي بذلك تدل على طبيعة الفطرة التي خلق الله عليها ولد آدم في حب تواصل الخير بعده في الذرية ؛ وقد وردت على لسان الأنبياء والصالحين الحكماء الكُمَّل؛ ومن ذلك ما ورد على لسان أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام؛ حيث دعا :{رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} (١٢٨) البقرة.{رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ} (٤٠)إبراهيم. ثم دعاء زكريا عليه السلام؛ {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ}(٣٨)آل عمران. ثم دعاء عباد الرحمن؛ {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}(٧٤: الفرقان). وعلى لسان الصالحين،{وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي}(١٥/الأحقاف)؛ وغيرها من الآيات ؛ ففي تدبر الآيات السابقة، وما فيها من الدعاء للذرية؛ يدرك المؤمن أن داعي الفطرة قوي في حب توريث عقيدة التوحيد وحب الله وطاعته، وإن من أهم وأعظم أسباب صلاح الأبناء كثرة الدعاء لهم ؛ كما علمنا القرآن ويكون ذلك ملازماً لاتخاذ الأسباب الصحيحة في التربية، ثم التوكل على الله تعالى.

{وإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ}التجأت إلى الله تعالى وتعلقت به ليعصم ابنتها،{وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} العدو البعيد عن كل خير، المطرود من رحمة الله لمخالفته أمره ؛ فاستجاب الله لها، فأعاذها الله وذرّيتها من الشيطان الرجيم، فلم يجعل له عليها ولا على ذريتها سبيلا.

وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعاذة من عدو ملعون يتربص بالبشر لإغوائهم ؛ ولا يكف عن الوسوسة، ولا يألو جهدا للإيقاع بهم في شركه، لإزاغتهم عن سبيل الحق، لكنْ من رحمة الله بالمؤمنين أن عرّفهم على عدوهم؛ حيث بيّن الله العزيز الحكيم للمؤمنين عداوة الشيطان، وحذّرهم فتنته مذ خلق آدم عليه السلام، فقال سبحانه :{يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ} {٢٧}(الأعراف)، والآيات في هذا الباب كثيرة. وقد علّمنا الله تعالى الاستعاذة من الشيطان ؛ لحفظ النفوس من شروره وإغوائه.

والاستعاذة تعني : الاستجارة، أي : أستجير بالله – دون غيره – من الشيطان أن يضرني في ديني أو يصدني عن حق يلزمني لربي. والشيطان في كلام العرب : كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شيء وإنما سمي المتمرد من كل شيءٍ شيطاناً ؛ لمفارقة أخلاقه وأفعاله أخلاق سائر جنسه وبعده من الخير. وهو اسمٌ مشتقٌ من شطن إذا بعد عن الخير، وسمي الشيطان شيطاناً ؛ لبعده عن الحق وتمرده. يقال : بئرٌ شطون ؛ أي: بعيدة القعر، والشطن مصدر شطنه يشطنه شطْناً ؛ خالفه عن وجهه ونيته، والشاطن ؛ الخبيث. والشطن ؛ الحبل، سمي به ؛ لبعد طرفيه وامتداده. وقيل : إن شيطاناً مأخوذ من شاط يشيط إذا هلك، وشاط إذا احترق، واشتاط الرجل إذا احتد غضباً.

والرجيم : فعيلٌ بمعنى مفعول، والرجيم ؛ الملعون المشتوم، وكل مشتومٍ بقولٍ رديءٍ أو سبٍّ فهو مرجوم، فهو المبعد عن الخير، المهان، وأصل الرجم ؛ الرمي بقولٍ كان أو فعل، ومن الرجم بالقول قول والد إبراهيم لإبراهيم : {لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً{٤٦}(مريم) وقد يجوز أن يكون قيل للشيطان رجيم ؛ لأن الله –عز وجل– طرده من سمواته، ورجمه بالشهب الثواقب.[١]

١-ينظر: أبو جعفر الطبري، محمد بن جرير.جامع البيان في تأويل القرآن. ١١١/١ مؤسسة الرسالة،ط ١، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.تحقيق أحمد شاكر. ابن فارس ،معجم مقاييس اللغة ،باب

وللاستعاذة دلالاتٌ تربوية؛ منها :

١-الاستعاذة تدفع المؤمن إلى عداوة الشيطان تنفيذاً لأمر الله تعالى حيث يقول :{إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ{٦} (فاطر) لقد احترق الشيطان بالغضب وابتعد عن الخير، وقد أظهر العداء لبني آدم وتفرغ للإيذاء الذي يتجلى في وساوسه التي لا تنتهي ؛ للتغرير بالناس وإغوائهم ؛ فإذا اعتقد المؤمن ذلك، ظل طوال حياته حذراً مما يعرض له من مواقف لا تحل ؛ لذلك يلجأ إلى الله تعالى يستنصره، ويستجير بجنابه من عدوٍ رجيمٍ أن يضره في نفسه أو في ذريته، في دينهم أو دنياهم، أو يصدهم عن طاعة ربهم وتنفيذ ما أمر به ؛ فإنه لا يكف الشيطان الرجيم عن المؤمن، إلا الله السميع العليم.

٢- الشيطان عدو خبيث حاقد، لم يكتف بإخراج آدم من الجنة ؛ بل استعمل أساليب ماكرةٍ للتغرير بذريته ؛ فتوعد وأقسم على القعود على الصراط المستقيم، والدخول إلى النفوس من مختلف جهاتها طمعًا في التضليل والإغواء وقد أخبرنا الله تعالى عن ذلك في قوله :{ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ{١٦} ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ{١٧}(الأعراف) وكان ذلك الفهم عند امرأة عمران المؤمنة ؛ مما دفعها لتلك الاستعاذة ؛ فواجب المؤمن تفويت ذلك الهدف على عدوه اللعين، بتوظيف حراسةٍ يقظةٍ دائمةٍ على قلبه، تتمثل بذكر الله بقلبه ولسانه، ثم مهابة الله وتعظيم أمره، واستمرار تذكره عداوة إبليس له، وبذلك يظل قوياً منتصراً على عدوه بفضل الله وكرمه.

الشين والطاء، وباب الراء والجيم. ط- دار الفكر-١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩م . تحقيق عبد السلام هارون . ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب، —مادة — شطن. ط ١ — دار صادر . بيروت .

وورد في الحديث عن أبو هريرة قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:" مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إِلَّا يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ ؛ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ، غَيْرَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا،ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ : [وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ] .[1]

وعند الإمام مسلم ؛عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:ما من مولود يولد إلا نحسه الشيطان؛ فيستهل صارخًا من نحسَةِ الشيطان، إلا ابن مريم وأمه. ثم قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم:"وإني أعيذُها بك وذرّيتها من الشيطان الرجيم".[2]

والحديث على ظاهره، وإبليس مُمَكَّنٌ من مس كل مولود عند ولادته، وأنه حاول ذلك مع مريم وابنها ؛ فلم يُمَكَّنْ منهما استجابة لدعاء أم مريم :{وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم }(آل عمران:٣٦). والحديث معجز في إخباره بذلك الأمر ؛ فكل مولود حي لابد أن يصرخ عند خروجه من بطن أمه، فمن أين للرسول ﷺ تلك المعلومة ؟! وهي حادثة مطردة وعامة في كل البشر.

وطلب أم مريم إجارة ابنتها وذريتها من الشيطان الرجيم ؛ أدب مع الخالق في التوجه له بالدعاء ويدل على فقهها وعلمها بعداوة الشيطان للمؤمنين، وأن الحافظ منه ومن وسوسته هو الرحمن الرحيم، ولا يُحْفَظ المؤمن إلا بذكر الله تعالى، وفيه دلالة على دور الأم العظيم في التربية من بداية حملها جنينها ؛ فكان التقبل من الله جزاء الإحسان ؛ {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا} جملة قرآنية واحدة، فيها قصد لفظ

---

١ – صحيح البخاري. كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:[وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا] رقم:٣٤٣١. ١٦٤/٤.

٢– الجامع الصحيح المسمى؛صحيح مسلم.باب–فضائل عيسى عليه السلام، رقم:٢٣٦٦. ١٨٣٨/١.

ووفاء معنى؛ أي:تقبّل الله جل ثناؤه مريمَ من أمها ؛ حيث نذرت تحريرَها إياها لخدمة الكنيسة تقرباً لربها، وفي ذلك دلالة على استجابة الله نذر امرأة عمران لصدقها وإخلاصها.

{بِقَبُولٍ حَسَن}"والقبول"، مصدر من:"قبِلها ربُّها"، فأخرج المصدر على غير لفظ الفعل. ولو كانَ على لفظه لكان : "فتقبلها ربها تقبُّلا حسنًا". وتفعل العرب ذلك : أن يأتوا بالمصادر على أصول الأفعال، وإن اختلفت ألفاظها في الأفعال بالزيادة، وذلك كقولهم:"تكلم فلان كلامًا"، ولو أخرج المصدر على الفعل لقيل:" تكلم فلان تكلمًا".[1]

قوله تعالى:{فَتَقَبَّلَهَا} « تَقَبَّلها » فعلاً ماضياً على تَفَعَّل بتشديدِ العين، و« ربُّها » فاعل بِهِ. وتفعَّل يحتمل وجهين، أحدهما: أن يكونَ بمعنى المجرد؛ أي: فَقَبِلها، بمعنى؛ رَضِيها مكانَ الذَّكَر المنذور، ولم يَقْبَلْ أنثى منذورةً مثلَ مريم، وتَفَعَّل يأتي بمعنى فَعِل مجرداً نحو : تَعَجَّب وعَجِب من كذا. والثاني : أن تفعَّل بمعنى استفعل، أي: فاستقبلها ربُّها، يقال : استقبلْتُ الشيء أي : أخذْتُه أولَ مرة، والمعنى: أنَّ الله تولاها في أول أمرها وحين ولادتِها.[2]

ومن دلالة معنى الكلمة تظهر الكرامة الإلهية والمكانة والمنزلة التي خصها الله تعالى بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وهو العزيز الحكيم.

والتقبل الذي هو الترقي في القبول، وهو أبلغ من (قَبْلِهَا) والقبول الذي يقتضي الرضا والإثابة، وجاء لفظ (حسنا) مبالغة في التكريم والفضل، مما يدل على مكانة آل عمران في ميزان الحق جل وعلا، وأن لمريم شأن ورفعة، ومما يدل على مكانتها مخاطبة القرآن لها؛ كما خوطب الأنبياء:{يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} (آل عمران:٤٣)

١- ينظر: الطبري،محمد بن جرير. جامع البيان في تأويل آي القرآن ،٣٤٤/٦. تحقيق:أحمد محمد شاكر.مؤسسة الرسالة.ط:١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

٢ -ينظر: الدر المصون،٧٦٠/١

قال الْحَرَالِّي: ولما أخبر بدعائها أخبر بإجابتها فيه فقال:{فَتَقَبَّلَهَا} فجاء بصيغة التَفَعل متطابقة لقولها: {فَتَقَبَّلْ} ففيه إشعار بتدرج وتطور وتكثر، كأنه يشعر بأنها مزيد لها في كل طور تتطور إليه، فلا تزال بركة تحريرها متجددة لها في نفسها وعائدا بركته على أمها.

ولما أنبأ القبول عن معنى في الباطن، أنبأ الإنبات عن معنى في الظاهر في جسمانيتها، وفي ذكر الفعل من أفعل في قوله :{وَأَنْبَتَهَا}والاسم من "فعل"، في قوله:{نَبَاتًا حَسَنًا}إعلام بكمال الأمرين: من إمدادها في النمو، الذي هو غيب عن العيون، وكمالها في ذاتية النبات الذي هو ظاهر للعين، فكمل في الإنباء والوقوع حسن التأثر، وحسن الأثر، فأعرب عن إنباتها ونباتها معنى حسنا.

وقد أنبأ سبحانه وتعالى، في هذه السورة الخاصة بقصة مريم، عليها الصلاة والسلام، من تقبلها وإنباتها وحسن سيرتها، بما نفى اللبس في أمرها وأمر ولدها ؛ لأن المخصوص بمنزل هذه السورة ما هو في بيان رفع اللبس الذي ضل به النصارى ؛ فيذكر في كل سورة ما هو الأليق والأولى بمخصوص منزلها، فلذلك ينقص الخطاب في القصة الواحدة في سورة ما يستوفيه في سورة أخرى، لاختلاف مخصوص منزلها ؛ كذلك الحال في القصص المتكررة في القرآن، من قصص الأنبياء، وما ذكر فيه ؛ لمقصد الترغيب والتثبيت والتحذير، وغير ذلك من وجوه التنبيه.[1]

وإنبات الله لها نباتاً حسناً برهان القبول والتقبل ؛{وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا}(٣٧/آل عمران) يعني: وأنبتها رَبُّها في غذائه ورزْقه نباتًا حسنًا، حتى تمّت فكملت امرأةً بالغةً تامة. [2]

---

١ ينظر :تراث أبي الحسن الْحَرَالِّي المراكشي في التفسير، الحَرَالِّيُّ أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ أَحْمَدَ بنِ حَسَنٍ الأَنْدَلُسِيُّ. محمادي بن عبد السلام الخياطي،منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي- الرباط.ط/١. ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

٢- ينظر : الطبري ، ٣٤٤/٦.

لقد نالت مريم البتول من العناية والرعاية الإلهية فضلاً وكرماً ؛ حيث يسر لها البيئة الحسنة التي تحصل فيها على تربية للجسد وللروح وللعقل، وفيها من يتولى الإشراف والمتابعة لنشأتها الحسنة، وهو النبي الكريم زكريا عليه السلام وهو زوج أختها ؛كما ورد في الصحيح (ثم صعد حتى إذا أتى السماء الثانية فاستفتح قيل من هذا ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل وقد أرسل إليه ؟ قال نعم، قيل: مرحباً به؛ فنعم المجيء جاء ففتح؛ فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة قال هذا يحيى وعيسى ؛ فسلم عليهما ؛ فسلمتُ فردا ثم قالا : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح)[1]. وقد نشأت تحت العناية الشاملة الكاملة ؛كما الشجرة في الأرض الخصبة والبيئة الصالحة، تنمو وتثمر لا يفسدها شيء بأمر الله تعالى، (وإنما قدر الله كون زكريا كافلها لسعادتها، لتقتبس منه علماً جماً نافعًا وعملاً صالحًا)[2]؛ فكانت قانتة من أهل الصلاح،وجعل الله ذريتها من أولي العزم من الرسل عليهم السلام.وفي لفظ (وَأَنبَتَهَا) ما يدل على أهمية الرعاية والعناية بالمولود من جميع النواحي التي يحتاجها ؛ لينمو نموا سديداً موفقاً ؛كما النبتة بمقدار متابعتها، أو الغفلة عنها تعطيك من ثمرتها.

وبذلك الإنبات كانت المرأة الكاملة المميزة في إخلاصها وفقهها، والتي يندر في النساء مثلها، وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال:قال النبي : ﷺ(فضل عائشة على النساء ؛كفضل الثريد على سائر الطعام،كمل من الرجال كثير،ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون.)[3] ؛ فكم وراء هذه الكلمات من دلالات مستفادة ترتقي بها النفوس المؤمنة ؟!!

١- صحيح البخاري. كتاب مناقب الأنصار.باب المعراج،رقم: ٣٨٨٧ .٥/٥٢.

٢ -بن كثير، ،تفسير القرآن العظيم.٢/٣٥.

٣- صحيح البخاري. كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، باب قوله تعالى:{إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم}رقم:٣٤٣٣. ٤/١٦٤.

وفيها توجيه تربوي ؛ لضرورة العمل على إيجاد بيئة تربوية صالحة نقية، تحيط بالناشئة، وتعمل على تغذيتهم جسميا وعقليا وروحيا، ومشرفين أتقياء يحملون همَّ التربية والتعليم ؛ ليثمر المجتمع جيلا فاعلا للحق ورافعا لرايته.

{وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا} وهي جملة قرآنية واحدة في نظمها، لها دلالاتها الأخلاقية ؛ بما ورد فيها من قراءات ؛ فقد قرأ عاصم وحمزة والكسائي (وكفَّلها) بالتشديد (زكريا) مقصورا. وحجتهم ؛ أن الكلام تقدم بإسناد الأفعال إلى الله وهو قوله قبلها :{فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا}؛ فكذلك أيضا ؛{وَكَفَّلَهَا} ؛ ليكون معطوفا على ما تقدمه من أفعال الله [1]. ففي هذه القراءة دلالة على أن الله تعهد مريم بعد قبولها، وفيها دليل على منزلتها ومكانتها في ميزان الحق جل شأنه ؛ أن تكون بتكليف من الله جل شأنه لنبي مخلص كريم، بجعله كافلاً لها، قائما على شؤونها، وهو من يَحْسُن به حمل المسؤولية ؛ ليتم ارتقاء مريم في النشأة الصالحة والتربية الزاكية ؛ فتكون صِدِّيقة، ولتصل إلى ما وصلت إليه من مثل ضُرب في كتاب يتلى على مر الزمان.

وثمة أثر تربوي وراء هذه القراءة، وهو ضرورة البحث من الوالدين، أو أحدهما عن شخصية المربي والمعلم لأولادهم،وأهمية اتصافه بصفات العدالة والرشد؛ لما في ذلك من أثر على المتربي الذي يراقب مربيه ويقتدي به.

وقرأ الباقون وكفلها بالتخفيف زكرياء بالمد والرفع. أي: وكفلها زكرياء أي ضمها إليه، والحجة لمن خفف الفاء: أنه جعل الفعل ل (زكريا)، فرفعه بالحديث عنه، وجعل ما اتصل بالفعل من الكناية مفعولا له. وجعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها، وقائماً بتدبير أمورها،وحجتهم قوله{إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ}[آل عِمْرَان: ٤٤] فأخذها زكريا ورباها في حجر خالتها، حتى إذا نشأت

١- ينظر:حجة القراءات،١٦٦.ابن خالويه،الحسين بن أحمد.الحجة في القراءات السبع.١٠٨/١. تحقيق:عبد العال سالم مكرم. دار الشروق. بيروت.ط:١٤٠١،٤هـ. الرازي ٢٠٦/٨.

وبلغت مبالغ النساء، انزوت في محرابها تتعبد فيه.[1] وفي هذه القراءة دلالة على منزلة زكريا ؛ حيث كلفه الله جل شأنه؛ كفالة مريم ؛فهو من يَحْسُن به حمل المسؤولية ؛ لإيمانه وحسن أخلاقه، ومن ناحية أخرى؛ أهمية البيئة الصالحة النقية لمريم فتنشأ صالحة تقية نقية قانتة لربها؛ كما أرادت أمها في نذرها، وقبول السميع العليم ذلك النذر.

وما بَيَنْتُه من توجيه لقراءة (وكفَّلها) بالتشديد وبالتخفيف، يُعد من التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ؛ حيث إن كل قراءة تُعد آية في حد ذاتها، وذلك من إعجاز الكتاب الكريم.

قوله تعالى :{كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيهَا زَكَرِيَّا ٱلمِحرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزقا قَالَ يَٰمَريَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَت هُوَ مِن عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيرِ حِسَابٍ٣٧}

كفلها زكريا عليه السلام وأخذها ورباها في حجر خالتها،حتى إذا نشأت وبلغت مبالغ النساء، انزوت في محرابها تتعبد فيه، والْمِحْرَابَ هُوَ مُقَدَّمُ الْمُصَلَّى، وَهُوَ مَقْصُورَةٌ فِي مُقَدَّمِ الْمَعْبَدِ لَهَا بَابٌ يُصْعَدُ إِلَيْهِ بِسُلَّمٍ ذِي دَرَجَاتٍ قَلِيلَةٍ وَيَكُونُ مَنْ فِيهِ مَحْجُوبًا عَمَّنْ فِي الْمَعْبَدِ، والمحراب سيد المجالس ومقدمها وأشرفها،ويقال هو مأخوذ من المحاربة ؛ لأن المصلي يحارب الشيطان ويحارب نفسه بإحضار قلبه.[2] والخلوة في المحراب للتعبد، لها أثرها العظيم على نفس المؤمن في التعلق بالله، ودوام القنوت له جل شأنه.

و(كلما) من حروف المعاني وتقتضي التكرار؛ وتفيد استمرار متابعة زكريا لمن كلفه الله رعايتها،وهو نبي حكيم يقوم على حفظ الأمانة التي حملها، فكان يأتيها في محرابها الذي لازمته وكانت فيه من القانتين، وهو في ذلك قدوة للمربي الناجح الذي يتابع وينتبه لمن هم تحت مسؤوليته.

١- ينظر:حجة القراءات،١٦٦. الحجة في القراءات السبع.١٠٨/١. الرازي ٢٠٦/٨.

٢-ينظر:مفاتح الغيب، الرازي ٢٠٦/٨.

{وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا}؛ (وحصول ذلك الرزق عند مريم يدل على علو شأنها وشرف درجتها، وامتيازها عن سائر الناس بتلك الخاصية، ومعلوم أن المراد من الآية هذا المعنى).[1] وفي الآية دليل على وقوع الكرامة لأولياء الله.

{قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا}؛ تعجب زكريا وجود الرزق عندها ولم يكن أتى به، وتكرر وجوده عندها ؛ فسأل على سبيل التعجب من وصول الرزق إليها، وكيف أتى هذا الرزق؟ و{أنّى}، سؤال عن الكيفية وعن المكان وعن الزمان، والأظهر أنه سؤال عن الجهة ؛ فكأنه قال: من أي جهة لك هذا الرزق؟ وجوابها؛ بأنه مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ظاهره أنه لم : يأت به آدمي البتة ؛ بل هو رزق يتعهدني به اللّه تعالى. ويظهر أنه كان يسأل كلما وجد عندها رزقا ؛لأنه من الجائز في الفعل أن يكون هذا الثاني من جهة غير الجهة التي تقدّمت ؛ فتجيبه بأنه من عند اللّه، وتحيله على مسبب الأسباب جل شأنه، فعند ذلك يطمئن زكريا بكونه لم يسبقه أحد إلى تعهد مريم، وبكونه يشهد مقاما شريفا، واعتناء لطيفا بمن خصه اللّه تعالى بكفالتها.[2]

وفي الآية {قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَت هُوَ مِن عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ} دلالة على تفكير الإنسان في أمر لا يُستغنى عنه وهو رزقه ؛ فتَبَينَ للمؤمنين مقدار اليقين الذي كان في نفس مريم الواثقة بربها، وهي التي ضربها الله مثلا للمؤمنين ؛ فهي في أعلى درجات اليقين أن رزقها مكفول من الله الرزاق، وذلك الرزق بغير تقدير؛ لكثرته، أو بغير استحقاق، تفضلاً منه تعالى.

{إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ}إن هذه الإجابة من مريم تدل على بلاغتها حيث الإجابة الواضحة المختصرة، والُمذَكِرَةُ لمن سمعها وهو زكريا عليه السلام ؛ فلجأ للدعاء في ذلك المكان والزمان،{هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَب لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨} آل عمران.

---

١ - الرازي ٢٠٧/٨

٢ - ينظر: البحر المحيط ، ١٢٤/٣.

وإجابتها تدل على فهم وعلم وإيمان ويقين، يدخل زكريا عليه السلام وهو كافلها الذي يقوم على شؤونها ويلبي لها حاجاتها ؛ وهو الذي يحس بأمانة المسؤولية ؛ فيجد عندها رزقا لم يأت به لها، فلما سأل سؤال تعجب؛ أجابته إجابة المؤمنة الواثقة من صدق إيمانها مع التأكيد ب(إنَّ)، وكانت إجابتها سبب تذكير لنبي الله زكريا بأهمية الدعاء، والمقام هنا احتاج التأكيد بـ (إنَّ) لأنه سؤال تعجب، {إِنَّ اللّهَ يَرْزُقُ} تعليل لكونه من عند الله ؛ وقد ورد نظير الآية في مواضع دون تأكيد ب{إنَّ} ؛لعدم الحاجة له في تلك المواضع؛ كقوله تعالى:{ وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَاب} [البقرة:٢١٢]}. وفي فاصلة الآية :{ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)} النور. (وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ) (أي: يرزق من يشاء من خلقه، ويعطيه عطاء كثيرًا جزيلا بلا حصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة).[1]

{بِغَيْرِ حِسَابٍ} بغير تقدير ولا نهاية ؛ فالمحسوب يحصى ويحدد بمقدار، وما كان بغير حساب فهو موكول لفضل الله بلا منة، ولا يقدر له مقدار،{ومن يتق الله يجعل له مخرجاً *ويرزقه من حيث لا يحتسب}(٢-٣الطلاق). وإما بغير استحقاق تفضلاً منه تعالى، يقال لفلان على فلان حساب إذا كان له عليه حق، وهذا يدل على أنه لا يستحق عليه أحد شيئاً، وليس لأحد معه حساب ؛ بل كل ما أعطاه فقد أعطاه بمجرد الفضل والإحسان، لا بسبب الاستحقاق. وبِغَيْرِ حِسابٍ تدل على أنه رزق يزيد على قدر الكفاية، يقال : فلان ينفق بالحساب إذا كان لا يزيد على قدر الكفاية، فأما إذا زاد عليه فإنه يقال : ينفق بغير

١ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم،١/٥٦٨.

حساب. وبِغَيْرِ حِسابٍ تدل على أنه يعطي كثيراً ؛ لأن ما دخله الحساب فهو قليل.[1]

(وعن عطاء قال : سألت ابن عباس عن هذه الآية؛{والله يرزق من يشاء بغير حساب}؛ فقال : تفسيرها ليس على الله رقيب ولا من يحاسبه).[2]

١- ينظر: الرازي٦ /٣٧١ .

٢- السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر.الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ٥٨١/١. تحقيق:مركز هجر للبحوث.دار هجر، مصر.

المبحث الثاني :

اللفظ القرآني ورسالته

تميز القرآن الكريم بإعجازه في نظمه بحروفه وكلماته؛لتفيد معان محددة دقيقة، مناسبة في مواضعها أشد التناسب.

قال الإمام المفسر ابن عطية: ووجه إعجازه أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بالكلام كله علماً ؛ فإذا ترتبت اللفظة من القرآن، علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى، وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره،... فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة،... كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد.[1]

وبناء على ما سبق تدبرت الآيات الكريمة، ووقفت على اختيار القرآن بعض الألفاظ دون ما يرادفها في اللغة العربية ؛ لاستنباط دلالتها وإعجازها ؛ فالمفردة القرآنية دقيقة محكمة ؛ لأداء معان مقصودة، ولكل كلمة قيمتها ومكانتها، فلا ترادف في القرآن الكريم، وكل كلمة تتناسب أشد التناسب مع أخواتها في الآية ؛ لتؤدي معانيَ متآلفة مقصودة، وسأعرض لبعض الكلمات ودلالتها ؛ لضيق المقام.

١- "محررا" الحُرُّ : خلاف العبد، والحريّة ضربان؛
الأول: من لم يجر عليه حكم الشيء؛ نحو: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ} [البقرة / ١٧٨].

١ - ينظر: ابن عطية ،أبو محمد عبد الحق بن غالب،المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط/٥٢، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

والثاني : من لم تتملّكه الصفات الذميمة من الحرص والشّره على المقتنيات الدنيوية، وإلى العبودية التي تضادّ ذلك أشار النبيّ ﷺ بقوله : «تعس عبد الدّرهم، تعس عبد الدّينار». [1]

والتحريرُ : جعل الإنسان حرّا ؛ فمن الأول:{فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} [النساء:٩٢]، ومن الثاني: {نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِي مُحَرَّراً}[آل عمران:٣٥]،قيل : هو أنه جعل ولده ؛ بحيث لا ينتفع به الانتفاع الدنيوي المذكور في قوله عزّ وجل : {بَنِينَ وَحَفَدَةً}[النحل:٧٢]؛بل جعله مخلصاً للعبادة.[2]

وفي نصب {مُحَرَّراً} أوجه، أرى أنسبها : أنه حالٌ من الموصول، وهو:{ما في بطني}؛ فالعاملُ فيها {نَذَرْتُ}؛ فالمعنى : (نذرت لك أن أجعل ما في بطني محرراً).[3] وبعد النظر في معنى الكلمة وإعرابها، تظهر دلالات أخلاقية في علاقة امرأة عمران مع الخالق المنعم، وهي النموذج المؤمن كما بينته الآيات الكريمة، وتلك المعاني لا نصل إليها في كلمة أخرى، ومنها ؛

أ-ترك حظ النفس في حب الولد أنساً به وانتفاعاً دنيوياً ؛ لعظمة محبة الله في نفس المؤمن، رجاءً لمرضاته.

ب-تربية المولود على العبودية الكاملة لله تعالى، وترك كل ما يضاد ذلك من عبودية لمظاهر الحياة الدنيا ؛ كالمال، أو الجاه، أو المنصب... مما تسعى وراءه وتطمع فيه النفوس الضعيفة، وتقدمه على محبة الله، ومحبة رسله عليهم الصلاة والسلام.

١-صحيح البخاري ،كتاب الجهاد،باب الحراسة في الغزو. رقم:٢٨٨٦ . ٣٤/٤، وفي الرقاق، باب، ما يتقّى من فتنة المال،رقم:٦٤٣٥. ٨/ ٩٢.

٢ - ينظر: الراغب الأصفهاني؛ الحسين بن محمد بن المفضل. المفردات في غريب القرآن، ٢٢٤.دار العلم الدار الشامية ،دمشق . بيروت.١٤١٢هـ . تحقيق:صفوان عدنان داودي. ينظر:الطبري؛جامع البيان في تأويل القرآن.٣٢٩/٦.

٣- مفاتيح الغيب ، ٢٠٣/٨.

ج- بذلك الإيمان والإخلاص استحق آل عمران ما منَّ الله-عز وجل-به عليهم من الاصطفاء ؛ فمن أراد من المؤمنين اصطفاء الله له ؛ فعليه بالإخلاص في التحرر من مظاهر الدنيا وعبوديتها للنفوس، وللأم دورها الهام في تجديد مستقبل الولد الإيماني ؛وذلك الدور سبب من أسباب نجاحه وتوفيقه وفلاحه في الدارين.

وهكذا ؛ فالصفوة من المؤمنين إذا طلبوا من الله الولد، طلبوه للوجه الذي طلبت امرأة عِمْرَان وزكريا عليه السلام حيث قال :{رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً}[آل عِمْرَان:٣٨].وما سأل إبراهيم: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ}[الصافات:١٠٠]، وكقوله في صفات عباد الرحمن:{وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً}[الفرقان:٧٤].

٢- التَّقَبُّلُ:قَبُولُ الشيء على وجه يقتضي ثواباً ؛كالهديّة ونحوها. قال تعالى:{أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا}[الأحقاف/١٦]، وقوله:{إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}[المائدة/٢٧]، تنبيه أن ليس كل عبادة مُتَقَبَّلَةً ؛ بل إنّما يتقبّل إذا كان على وجه مخصوص. قال تعالى:{إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي}[آل عمران/٣٥]. وإنما قيل:{فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ}[آل عمران/٣٧] ولم يقل بتقبّل للجمع بين الأمرين:التَّقَبُّلِ الذي هو التّرقّي في القَبُولِ، والقَبُولِ الذي يقتضي الرّضا والإثابة.وقيل: القَبُولُ هو من قولهم : فلان عليه قبول : إذا أحبّه من رآه. [١]

ولا بد من التأمل في دلالات لفظ ؛ (تَقَبَّلْ) في دعاء امرأة عمران :{إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي} [آل عمران/٣٥] ؛حيث يظهر مقدار حرصها على قبول عبادتها ؛ في شرع لبني إسرائيل وليس عندنا ؛ فتنذر بأن تجعل ذلك المولود وقفاً على طاعة اللّه، وهي بذلك لا تريد إلا مرضاة الله والإخلاص في عبادتها له جل شأنه ؛ فهي تقوم بطاعة وتتضرع إلى الله ليتقبل منها ؛ فهو

١- ينظر:المفردات في غريب القرآن ،٦٥٤.

التّرقّي في القَبُولِ، وفيه دلالة على حبها للتربية القويمة واستمرار الصلاح وتوريثه للولد.

وهي امرأة وأم حملت وليدها وهناً على وهن،وتطمع في تربيته ؛ ليكبر ويقوم على مراعاتها وخدمتها...، تناست حظ نفسها تعظيماً لربها وحرصاً على مرضاته، فعلى الأمهات الصالحات أن تتأمل حال امرأة عمران ؛ للاقتداء بها طمعا في تنشئة كريمة صالحة لأجيال المستقبل، وتربية الولد على حب طاعة الله وتقديمها على السعي وراء شؤون الدنيا الفانية.

٣- مريم :

{وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ} (مريم في لغتهم:العابدة؛ فأرادت بهذه التسمية أن تطلب من اللّه تعالى أن يعصمها من آفات الدين والدنيا، والذي يؤكد هذا قولها بعد ذلك،{وَإِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ}.[1] وتسميتها بذلك يدل على فقه الأم في اختيار اسم المولود ؛ والاسم له علاقة بشخصية الطفل وتنشئته، رجاء أن يكون فعله مطابقاً لاسمه ؛ ويستفاد من الآية ؛مشروعية التسمية للأم ومشاركتها للأب في ذلك.

وفي الآية تصريح باسم مريم، ولم يُكَنِّ عنها، مما يدل على صحة التصريح باسم المرأة ولا حرج في ذلك ؛كما يظن البعض ويتحرج من ذكر اسم أمه أو قريبته....

٤- وكان اللفظ (أنبتها نباتا) ولم يقل: إنباتًا حسنًا ؛ لأن أنبت فيها دلالة على التدرج، وأن هناك من يقوم على تربيتها ورعايتها، وذلك يتناسب مع مرحلية التربية والتنشئة وأهمية المتابعة، ثم كان انتقاء لفظة نبت ؛ لأن الزرع يحتاج الرعاية المستمرة من المزارع ؛ لإبعاد كل ما يمكن أن يؤذي الزرع مما ينبت حوله من نباتات ضارة، وكذلك الولد يحتاج الانتباه والملازمة له ؛ لإبعاد كل ما يعرض له

١- مفاتيح الغيب.٨/٢٠٤.

من شرور العلاقات في طريق تربيته وتعليمه، ووصف تلك التربية بالحسن؛ ليظهر تلك الرعاية المميزة من جهة أمها، ومن متابعة نبي الله زكريا عليه السلام.

وأشير هنا إلى أن ذلك الإنبات الحسن كان له أثره في ضرب المثل بها للمؤمنين في قوله تعالى: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} [التحريم:١٢] قال ابن القيم : (وفي ضرب المثل للمؤمنين بمريم أيضا: اعتبار آخر، وهو أنها لم يضرها عند الله شيئا قذف أعداء الله اليهود لها، ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأهما الله منه، مع كونها الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين. فلا يضر الرجل الصالح قدح الفجار والفساق فيه.

وفي هذا أيضا تسلية لعائشة أم المؤمنين، إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك. وتوطين نفسها على ما قال فيها الكاذبون، إن كانت قبلها)[1].

ومن معاني المثل ؛ القصة العجيبة الشأن ؛ وقد كانت قصة امرأة فرعون عجيبة في تقديمها الإيمان على كل ما تتمتع به من زينة الدنيا، وهو الذي تطلبه عامة النساء ؛ فقد عزفت عنه وطلبت جوار ربها، وقد شابهتها وارتبطت بها مريم التي كانت في مجتمع يغلب عليه البعد عن الحق، والتي كان شأنها وقصتها عجيبة أشد ما يتعجب منه في حال البشر عامة والنساء خاصة، فمنذ أن حملت بها أمها ثم أن نذرتها،ثم أن ولدتها وعوذتها، ثم أن قُبلت للسدانة وتميزت بالقنوت، ومَن مِن النساء تطيق ما طاقت مريم ابنة عمران، ثم أن يتمثل لها الملك ويبشرها بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى ابن مريم، فتفاجأ وتدهش بذلك، ولكنها تصبر وتتهيأ للأمر لإيمانها ويقينها، مع مشقته أعظم ما يتصور على فتاة عذراء طاهرة عفيفة، ألقت الدنيا وتفرغت لعبادة ربها بصدق إخلاص.

١- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب.التفسير القيم، ٥٤٩/١. المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان ،دار ومكتبة الهلال- بيروت.ط-١-١٤١٠ هـ

ولا بد من الإشارة هنا لما يؤكد منزلتها واستحقاقها ؛ ليضرب بها المثل ما بينه قوله تعالى : {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا}[مريم:١٦] أمر بذكر مريم في الكتاب الكريم عليها السلام، وهذا الذكر لها من أعظم مناقبها وفضائلها، أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها إلى قيام الساعة، والثناء عليها بذلك، جزاء لعملها الفاضل، وسعيها الكامل، أي: واذكر في الكتاب مريم، في حالها الحسنة، حين تباعدت عن أهلها إلى مكان مما يلي الشرق عنهم.

والكلام مستأنف؛ خوطب به النبي صلّى الله عليه وسلّم، اذكر يا محمد في كتاب الله الذي أنزله عليك بالحق وهذا الذكر يدل على رفعة مريم ابنة عمران، حين اعتزلت من أهلها، وانفردت عنهم، يعني: أهمية ذكر وتذكر ذلك الوقت الذي اعتزلت وانفردت من أهلها ؛ لمقصد يرمي إليه بعض المؤمنين بحق ولا يستطيعه كل مؤمن، وهو ما قدرت عليه مريم البتول القانتة، والتي جعلها الله آية، يعني علامة ظاهرة لتعليم غيرها، ففيه تعليم لمن بعدها من المؤمنين بضرورة الاعتزال وأهميته؛ للارتقاء بالنفس أحيانا؛ فالخلوة مع الله فيها تربية للنفس على الزهد في الدنيا، وترك الانشغال بها طلبا لمرضاة الخالق، والتبتل والتزلف له جل شأنه. وهذا ما تعلمناه من نبينا الكريم صلّى الله عليه وسلّم في التهجد وقيام الليل، وفيه توجيه للمؤمنين للحرص عليه ومعرفة أثره في تهذيب النفس وتربيتها للثبات على الحق وحمل رسالته.

وكان مجيء قصة مريم بعد ذكر قصة زكريا في سورة مريم، وأمر صلّى الله عليه وسلّم أن ذكر قصة مريم بعد ذكره قصة زكريا عليه السّلام ؛ لما بينهما من كمال الارتباط والمناسبة ؛ فالذكر يدل على شرف المذكور ومنزلته، ويدفع أصحاب الهمم ؛ لمعرفة العامل الذي كان سببا في ذكر ذلك الإنسان والإشارة له دون غيره.

وقوله تعالى: {إِذِ انْتَبَذَتْ} أَيِ: اذْكُرْ زَمَنَ انْتِبَاذِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا. (إِذِ) ظرف لذلك المضاف ؛ لكن لا على أن يكون المأمور به ذكر نبئها عند انتباذها فقط؛ بل كل ما عطف عليه وحكي بعده بطريق الاستئناف، داخل في حيز الظرف متمم للبناء. وانْتَبَذَتْ؛ أي :اعتزلت وانفردت من أهلها، وأتت مكانا شرقيا من بيت المقدس، أو من دارها لتخلو للعبادة [1].

ولا بد من الوقوف مع قوله تعالى: (انتبذت)؛ فأصل كلمة (نَبَذَ)، النُّونُ وَالْبَاءُ وَالذَّالُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى طَرْحٍ وَإِلْقَاءٍ. وَنَبَذْتُ الشَّيْءَ أَنْبِذُهُ نَبْذًا : أَلْقَيْتُهُ مِنْ يَدِي ؛ فالنَّبْذُ: إلقاء الشيء وطرحه لقلّة الاعتداد به ؛ ولذلك يقال : نَبَذْتُهُ نَبْذَ النَّعْل الخَلِق، قال تعالى :{لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ}[الهمزة/ ٤]،{فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ}[آل عمران/ ١٨٧] لقلّة اعتدادهم به، وَانْتَبَذَ فلان : اعتزل اعتزال من لا يقلّ مبالاته بنفسه فيما بين الناس. [2]

وبناء على معنى الكلمة ؛ تظهر دلالتها على أن مريم قصدت طرح الدنيا رغبة عنها، ولعدم اعتدادها بها ؛ لفنائها ؛ إذ لا قيمة لها ولا وزن مقابل الحياة الآخرة السرمدية، وتفرغها للعبادة باعتزال كل ما يشغلها عن ذلك ؛ فهي الصِّديقة في أخلاقها مع ربها،حيث فرغت قلبها لمحبة الله وحده،واختارت العزوف عن الدنيا بكل ما فيها محققة لازم النذر ؛ فهي من نذرتها أمها محررة من أي شيء إلا القنوت لله تعالى.

وذلك الفعل في طرح الدنيا والتفرغ للعبادة، يتناسب مع معنى اسمها الذي توسمته أمها، ويُعَدُّ امتثالا منها لقول الله تعالى :{وَإِذ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ٤٢ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ}[آل عمران:٤٢-٤٣]

١- ينظر:الطبري،١٦١/١٨. القاسمي ٨٨/٧. ابن عاشور،١٨/ ٧٩. السعدي ٤٩١/١.

٢-ينظر:معجم مقاييس اللغة،مادة نبذ.٣٨٠/٥.مفردات غريب القرآن، مادة نبذ،٧٨٨/١.

وفي تكرار الظرف (إذ) في الآيات التي تحدثت عن قصة مريم دلالة توحي بضرورة المداومة على ذكر تلك الأزمنة من حياة مريم وما حدث فيها من مواقف عظيمة ؛ لها أثرها على حياة كل مؤمن بعدها، فقد كانت علامة ظاهرة لكل ناظر إلى عظمة الله، وفضله على من يشاء من عباده الصالحين ؛ لما تجلى فيهم من صفات انفردت بها ؛ ولما تتركه من آثار إيجابية على المؤمنين عند سماعهم الآية، أو عند تلاوتها وبعد تدبرها والتأمل فيها.

ثم أي منزلة لتلك الصديقة؛ أن يرسل الله لها جماعة الملائكة تخبرها وتزف لها خبر اصطفاء الله لها من دون النساء على مر الأزمان.

ولا بد من الوقوف مع تلك الألفاظ المنتقاة في الآيتين السابقتين من آل عمران، وبيان وجه المناسبة بينها وبين أفعال مريم الصديقة القانتة بشهادة القرآن الكريم.

(اصطفاك) من (صَفَوَ) الصَّادُ وَالْفَاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى خُلُوصٍ مِنْ كُلِّ شَوْبٍ؛ وَهُوَ ضِدُّ الْكَدَرِ ؛ يُقَالُ : صَفَا يَصْفُو، إِذَا خَلَصَ. وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ صِفْوَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَخِيرَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَمُصْطَفَاهُ. والاصْطِفَاءُ : تناولُ صَفْوِ الشيءِ ؛ كما أنّ الاختيار : تناول خيره، واصْطِفَاءُ اللهِ بعضَ عباده ؛ يكون بإيجاده تعالى إيّاه صَافِياً عن الشّوب الموجود في غيره. [1] ففي هذه الكلمة ؛ اصطفاك ؛ دلالة على قَبول الله تعالى لما نذرته امرأة عمران محرراً خالصاً من أي شوب يكدر صفوه ؛ ولذلك قامت بانْتِبَاذِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا تحقيقاً لذلك الاصطفاء.

ولم يكن الاصطفاء فقط ؛بل الطهارة أيضا ؛ (طهرك) من (طَهَرَ) الطَّاءُ وَالْهَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى نَقَاءٍ وَزَوَالِ دَنَسٍ. وَمِنْ ذَلِكَ الطُّهْرُ، خِلَافُ الدَّنَسِ. وَالتَّطَهُّرُ : التَّنَزُّهُ عَنِ الذَّمِّ وَكُلِّ قَبِيحٍ. وَفُلَانٌ طَاهِرُ الثِّيَابِ، إِذَا لَمْ

١ – ينظر:معجم مقاييس اللغة،مادة صفو،٢٩٢/٣. مفردات غريب القرآن، مادة صفو،٤٨٧/١.

يُدَنَّسُ ؛ فالطَّهَارَةُ ضربان : طَهَارَةُ جسم، وطَهَارَةُ نفس، ويُحمل عليهما عامّة الآيات في القرآن الكريم. يقال: طَهَّرْتُهُ فَطَهُرَ، وتَطَهَّرَ، وَاطَّهَّرَ فهو طَاهِرٌ ومُتَطَهِّرٌ. قال تعالى : {وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا}[المائدة/ ٦]، أي: استعملوا الماء، أو ما يقوم مقامه، وقال تعالى : {وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}[البقرة/ ٢٢٢]، أي: التاركين للذنب والعاملين للصّلاح، وقال: {فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا}[التوبة/ ١٠٨] {وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ}[التوبة/ ١٠٨] ؛ فإنه يعني تَطْهِيرَ النّفسِ، {وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}[آل عمران/ ٥٥]، أي: مخرجك من جملتهم ومنزّهك أن تفعل فعلهم. {وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفاكِ}[آل عمران/ ٤٢] [١] ؛ ففي اختيار هذا اللفظ (طهرك) ما يدل على طهارة مادية من كل ما يدنس أو ينجس، ثم طهارة معنوية في صفاء نفس وخلوص قلب ونقاء وجدان. مما أثمر استحقاقها للاصطفاء الثاني ؛ وهو غير الاصطفاء الأول ؛ {وَٱصطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَاءِ ٱلعَٰلَمِينَ}؛ فكانت كاملة، وكان اصطفاؤها على نساء العالمين في زمانها ؛كما أخبر الحبيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ ؛كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ، كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ:إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ".[٢]

وعن عَلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ»[٣] (خير نسائها)، أي: نساء الدنيا في زمانها.

---

١ – ينظر:معجم مقاييس اللغة،مادة طهر.٤٢٨/٣. مفردات غريب القرآن، مادة طهر.٥٢٥/١.

٢– صحيح البخاري،كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ،بَابُ{وَإِذْ قَالَتِ المَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ}رقم:٣٤١١. ١٥٨/٤.

٣ –المرجع السابق. رقم:٣٤٢٣. ١٦٤/٤. وأخرجه مسلم في كِتَاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها رقم:٢٤٣٠. ٤/ ١٨٨٦.

المبحث الثالث :

مريم وابنها علامة ظاهرة وقصة عجيبة

لقد حققت القنوت ؛ كما أمرها خالقها جل وعلا ؛{يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ}، واستحقت أن تكون قصتها عجيبة الشأن مثلا ضربه الله للمؤمنين، ووصْفَ الله تعالى لها بذلك؛{وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِين} [التحريم:١٢]

وقد استحقت أن يضرب الله بها مثلا لمناقبها التي امتازت بها، وجاء ذلك المثل في نهاية سورة التحريم، وقد كان في بداية سورة التحريم الحديث عن أمهات المؤمنين، وما حدث منهن من اتفاق على أمر ترتب عليه تحريم الرسول صلى الله عليه وسلم على نفسه أمرا مباحا ؛ فنزلت الآيات في بداية سورة التحريم تبين ذلك، وفيه توجيه لأمهات المؤمنين للتعامل القويم الصحيح مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وجاء ضرب المثل بنساء كافرات تمردن على أزواجهن الأنبياء، وفيه تحذير وتنبيه، ومقابل ذلك نساء مؤمنات التزمن الحق وسعين لمرضاة الله تعالى رغم وجودهن في مجتمعات غير صالحة، فينبغي على المؤمنات الاقتداء بهن، منهن آسيا زوجة فرعون ومريم البتول ؛ قال جل وعلا: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِين *وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِين} [التحريم: ١١-١٢] وذلك لأن مريم كانت المرأة الكاملة المميزة في إخلاصها وفقهها، والتي يندر في النساء مثلها، ولا بد من الإشارة لمعنى كلمة ؛ قَنَتَ؛ فالْقَافُ وَالنُّونُ وَالتَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ ؛ يَدُلُّ عَلَى طَاعَةٍ وَخَيْرٍ فِي دِينٍ، لَا يَعْدُو هَذَا الْبَابَ. وَالْأَصْلُ فِيهِ لزوم الطّاعة مع الخضوع، يُقَالُ: قَنَتَ يَقْنُتُ قُنُوتًا. ثُمَّ سُمِّيَ كُلُّ اسْتِقَامَةٍ فِي طَرِيقِ الدِّينِ قُنُوتًا، وَقِيلَ لِطُولِ الْقِيَامِ فِي الصَّلَاةِ قُنُوتٌ، وَسُمِّيَ السُّكُوتُ فِي الصَّلَاةِ وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهَا قُنُوتًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : {وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} [البقرة: ٢٣٨]. وقد كانت مريم عليها السلام كذلك.

(فقوله سبحانه: {مِنَ الْقَانِتِينَ} ولم يقل: من "القانتات" إيذانا بأن وضعها في العبادة جداً واجتهاداً وعلماً وتبصراً ورفعة من الله لدرجاتها في أوصاف الرجال القانتين وطريقهم)[1].

ويظهر من خلال النظر والتأمل والتدبر في هذه المفردات، مقدار ما بينها من تناسق عجيب يَصُبُ في مقصد بياني معجز له أثره التربوي والأخلاقي، يشوق المؤمن ويدفعه للاجتهاد في مراقي العبادة والإخلاص والصفاء، عساه ينال القبول عند رب غفور حليم.

ولقد جعل الله ابن مريم لكل الناس علامة ظاهرة على عظيم قدرته جل شأنه ؛ حيث كان خلقه وولادته من غير أب، ولما ظهر فيه عليه السلام من الخوارق ؛ كتكلمه في المهد بما تكلم صغيرا، وإحيائه الموتى وإبرائه الأكمه والأبرص، وإخباره عما يأكل الناس وما يدخرونه في بيوتهم وغير ذلك. وقد كان انتقاء لفظ آية وتكراره في مواضع عدة ليؤدي رسالة هامة في قصة مريم ؛ من حيث ظهور دلالتها على قدرة الله التي يشك فيها من يستحق غضب الله جل وعلا، وكان عيسى عليه السلام كلمة من الله ؛{إِذ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ٤٥ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٤٦ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٧}

وكان التأكيد على حصانة الصديقة القانتة مريم ؛ فقد قال جل وعلا :{وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا} [مريم:٢١] قال الشيخ السعدي:(تدل على كمال قدرة الله تعالى وعلى أن الأسباب جميعها لا تستقل بالتأثير وإنما تأثيرها بتقدير الله فيري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية؛ لئلا يقفوا مع

١- الزركشي،محمد بن عبد الله بن بهادر، البرهان في علوم القرآن.٣٠٢/٣.تحقق :محمد أبو الفضل إبراهيم.ط:١. ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م دار إحياء الكتب العربية

الأسباب ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها، {وَرَحْمَةً مِنَّا}؛ أي : ولنجعله رحمة منا به وبوالدته وبالناس ؛ أما رحمة الله به ؛ فلما خصه الله بوحيه ومن عليه بما من به على أولي العزم ؛ وأما رحمته بوالدته ؛ فلما حصل لها من الفخر والثناء الحسن والمنافع العظيمة ؛ وأما رحمته بالناس ؛ فإن أكبر نعمه عليهم أن بعث فيهم رسولا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ؛ فيؤمنون به ويطيعونه وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة.)[1]

{وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ} الآية:هي العلامة الظاهرة [2]، وهذه الآية جزء من الحوار مع روح القدس حين جاء يخبرها بحملها بعيسى عليه السلام، فتعجبت من كون غلام لها دون سبب ؛ فكان التبشير من جبريل ؛ كما علمه ربه ؛ (وكي نجعل الغلام الذي نهبه لك علامة وحجة على خلقي أهبه لك.(ورحمة منا) يقول: ورحمة منا لك، ولمن آمن به وصدقه أخلقه منك)[3].

لقد كان عيسى عليه السلام رحمة بهدايته للناس بعد ضلالهم، وبما جاء به من شرع عَلَّمَ الناس الرحمة والرأفة، اقتداء منهم بنبيهم عيسى عليه السلام، الذي كان رحمة من الله للناس، قال تعالى: {وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبنِ مَريَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلإِنجِيلَ وَجَعَلنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأفَة وَرَحمَة ٢٦} (الحديد).

ولم يكن ابن مريم وحده آية ؛ بل جعل الله أمه مريم آية، وعلامة ظاهرة الدلالة على قدرته جل شأنه ؛ قال تعالى: {وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِين} [الأنبياء:٩١]}

وأبين هنا سبب تقديم ذكر مريم هنا ؛ لأن الآية في سياق الحديث عن الأنبياء وابنها من الأنبياء وولد من دون أب، فلا بد من بيان يشهد لها بحصانتها وإحصانها نفسها ؛ فذكرت بأمر يظهر عفتها وطهارتها وفيه ثناء عليها بذلك ورد

١ - تفسير السعدي ٤٩١/١.

٢- ينظر :مفردات الراغب،١٠١/١.مادة،أي.

٣- الطبري،١٦٥/١٨

على ما افتراه اليهود عليها ؛ فالأنسب أن يتقدم ذكرها للإشارة والدلالة على ذلك، ثم يذكر ابنها النبي عيسى بن مريم عليه السلام الذي ينسب لأمه دون غيره من الأنبياء.

{وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِين} والآية: العلامة الظاهرة ؛كما بينت آنفا.
قال سبحانه :{آية} ولم يقل آيتين ؛ لأن معنى الكلام : وجعلنا شأنهما وأمرهما وقصتهما آية للعالمين، وعلامة دالة على عظمة الله وقدرته، بولادته منها من غير أب ؛ فالآية أمر واحد مشترك بينهما ؛ فلذا أفردت، ففي تأمل حالتهما بيان تحقق كمال قدرته عز وجل؛ فالمراد بالآية ما حصل بهما من الآية،مع تكاثر آيات كل واحد منهما. وقيل أريد بالآية؛ الجنس الشامل ما لكل واحد منهما من الآيات المستقلة. وقيل: المعنى وجعلناها آية وابنها آية، فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها[1].
وقال سبحانه :{ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِين }؛ فقد كانت قصة مريم وابنها علامة ظاهرة للعالمين في كل زمان ومكان ؛ فذكرها وذكر ابنها محفوظ غير منقطع، وفيه دلالة قبول لنذر أمها وعلامة اصطفاء وإخلاص يسعى له كل مؤمن ويرجوه ويتمناه.
وأبين في سورة المؤمنون سبب تقديم ذكر ابن مريم، {وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِين} [المؤمنون: ٥٠] عند النظر في سياق الحديث في سورة المؤمنون ؛ أجده حديثا عن معجزات الأنبياء التي تحدوا بها أقوامهم واتصل الحديث عن عيسى عليه السلام بالحديث عن موسى عليه السلام، وما جاء به من آيات واضحات لفرعون ؛ لكنه رفض الحق....؛ فكان تقديم ذكر

١-ينظر: الطبري،٢٥٣/١٨ ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس، تفسير القرآن العظيم ٦٩٥/١٣ المحقق: أسعد محمد الطيب. مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية.ط- ٣- ١٤١٩ هـ

الابن هنا، هو الأنسب بالسياق ؛ فهو النبي المرسل وولادته معجزة في حد ذاتها، ودليل على صدق رسالته.

وقد بين العلماء سبب قول الله سبحانه: {آية} ولم يقل آيتين ؛لأنّ كل واحد صار آية بالآخر، وقصتهما كلها آية عظمى بمجموعها وهي آيات مع التفصيل وأخذها من كلا الوجهين متمكن [1].

وَالْأَقْرَبُ أَنَّهُ جَعَلَهُمَا آيَةً بِنَفْسِ الْوِلَادَةِ؛ لِأَنَّهُ وُلِدَ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ، وَوَلَدَتْهُ مِنْ دُونِ ذَكَرٍ ؛ فَاشْتَرَكَا جَمِيعًا فِي هَذَا الْأَمْرِ الْعَجِيبِ الْخَارِقِ لِلْعَادَةِ، وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا التَّفْسِيرَ أَوْلَى، وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ تَعَالَى، قَالَ: وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ؛ لِأَنَّ نَفْسَ الْإِعْجَازِ ظَهَرَ فِيهِمَا، لَا أَنَّهُ ظَهَرَ عَلَى يَدِهِمَا، وَهَذَا أَوْلَى مِنْ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى الْآيَاتِ الَّتِي ظَهَرَتْ عَلَى يَدِهِ نَحْوَ؛ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى ؛ وَذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْوِلَادَةَ فِيهِ وَفِيهَا آيَةٌ فيهما،....الثَّانِي: أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ آيَةً وَلَمْ يَقُلْ آيَتَيْنِ، وَحَمْلُ هَذَا اللَّفْظِ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي لَا يَتِمُّ إِلَّا بِمَجْمُوعِهِمَا أَوْلَى، وَذَلِكَ هُوَ أَمْرُ الْوِلَادَةِ لَا الْمُعْجِزَاتِ الَّتِي كَانَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُسْتَقِلًّا بِهَا.[2]

وَتَنْكِيرُ آيَةً لِلتَّعْظِيمِ؛ لِأَنَّهَا آيَةٌ تَحْتَوِي عَلَى آيَاتٍ. وَلَمَّا كَانَ مَجْمُوعُهَا دَالًّا عَلَى صِدْقِ عِيسَى فِي رِسَالَتِهِ جُعِلَ مَجْمُوعُهَا آيَةً عَظِيمَةً عَلَى صِدْقِهِ.

{وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ}؛ تَنْوِيهٌ بِهِمَا إِذْ جَعَلَهُمَا اللَّهُ مَحَلَّ عِنَايَتِهِ وَمَظْهَرَ قُدْرَتِهِ وَلُطْفِهِ. والْإِيوَاءُ: جَعْلُ الْغَيْرِ آوِيًا، أَيْ سَاكِنًا.[3]

ومعنى كلمة (أَوَى) يرجع إلى أصلين: أَحَدُهُمَا التَّجَمُّعُ، وَالثَّانِي الْإِشْفَاقُ ؛ فكان لهذه اللفظة في هذه الجملة دلالتها على رحمة الله ورعايته لمريم وابنها ؛

---

١ -ينظر:مفردات الراغب،١٠٢/١.لسان العرب،مادة أي. معجم مقاييس اللغة،مادة أي.المحرر الوجيز٤ /١٤٥.

٢- ينظر: مفاتح الغيب ٢٨٠/٢٣

٣ - ينظر: التحرير والتنوير، ١٨/ ٦٧.

حيث قَدَّرَ لهما مكانا ما يكون مأوى يجتمعان فيه ؛ فالْمَأْوَى: مَكَانُ كُلِّ شَيْءٍ يُأْوَى إِلَيْهِ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا. يقال: أَوَيْتُ لِفُلَانٍ آوِي لَهُ مَأْوِيَةً، وَهُوَ أَنْ يَرِقَّ لَهُ وَيَرْحَمَهُ.

وَالرَّبْوَةُ : الْمُرْتَفَعُ مِنَ الْأَرْضِ، وأذكر دلالة ما في ذلك من حيث التوجيه لأهمية اختيار المكان الصحي الذي يكون مأوى مناسبا ؛ فالربوة ليست جبلا عاليا، ولا سهلا أو واديا، وهي أنسب مكان صحي يناسب حياة الإنسان. وقد ألهم اللَّه مريم أن تذهب لتلك الربوة حين اقترب زمان مخاضها ؛ لتلد ابنها في معزل عن النَّاس حفظًا له من أذاهم ومراعاة لحالها، وحفظا لصحتها وحياة ابنها ؛ ولتستقر وتهدأ نفسها.

والقرار من قَرَّ: وهو المكثُ والتمكن، يقال : قَرَّ واستقر، وتلك الربوة احتوت على النخلة التي فيها قوتها الذي تحتاجه وينفعها.

والمعين: (مَعَنَ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى سُهُولَةٍ فِي جَرَيَانٍ. وَمَعَنَ الْمَاءُ: جَرَى. وَمَاءٌ مَعِينٌ. الظَّاهِرُ الْجَارِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ.

وهذا كما جاء في سورة مريم: { فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً}(مريم :٢٤ – ٢٦).فقد أكرمها الله بكل ما تحتاجه من حسن مأوى وطيب طعام وشراب، يكون سبب سرور وقرة عين ؛ فهو تكريم وأي تكريم.

ولله الحمد والمنة والثناء الحسن.

خاتمة البحث : نتائج وتوصيات :

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات ؛ فقد انتهيت من البحث في آيات يختلج حديثها أعماق النفوس، من البدء حتى الختام، وقد توصلت بعد التأمل والتدبر وضمن جهد بشري قاصر إلى نتائج هي:

١- بيان دلالات التعبير القرآني وأثرها التربوي والأخلاقي، من خلال آيات كريمة تحدثت عن قصة امرأة عمران وابنتها مريم، وأثر ذلك على حياة المسلم وسلوكه ؛ تقويماً وإصلاحاً.

٢- استنباط وجه المناسبة بين الآيات الكريمة والتناسق في اختيار الألفاظ، واستنباط دلالات من نظم الآيات يُعد من ثمرات التدبر التي دعا إليه القرآن الكريم ؛ فتزداد النفوس إيماناً وعلماً، وترتقي في درجات التقوى والصلاح.

التوصيات:

١- إن لكل آية في كتاب الله وجه مناسبة مع أختها،، ومقصداً ترمي إليه، و بعد التدبر وإنعام النظر يتوصل الباحث لذلك، وهو أمرٌ اجتهاديٌ ؛ ومجالٌ رحبٌ للباحثين يتوصلون من خلاله لإعجاز القرآن الكريم.

٢- القرآن الكريم كتاب الله الذي ينهل منه الباحثون، كلٌ حسب اختصاصه ؛ ومن ذلك الوقوف على معاني النظم القرآني ودلالاته ؛ وما فيه من وجوه إعجاز في أسلوبه واختيار ألفاظه، يُستنبط منها قضايا تربوية وأخلاقية تؤدي إلى صلاح النفوس.

وقد اقتصرت في هذا البحث على ما اقتضاه المقام، رغم أن النفس في شوقٍ للتوسع، وأسأل الله تعالى أن ييسر لي دوام الصلة بكتابه العزيز ؛ إنه سميع مجيب وﷺ وبارك على سيّد المرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسانٍ إلى يوم الدين.

قائمة المصادر والمراجع

١- الألوسي، محمود. روح المعاني. المحقق: علي عبد الباري عطية.دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ
٢- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله، صحيح البخاري المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة.
٣- البغوي؛ أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل. حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش. دار طيبة للنشر.ط/٤. ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
٤- البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. دار الكتب العلمية. بيروت. ط: ١٤١٥هـ /١٩٩٥م.
٥- أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزيء الكلبي.التسهيل لعلوم التنزيل.١/١٤٤. تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي. الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت. ط:١ - ١٤١٦ هـ.
٦- الجصاص، أحمد بن علي المكنى بأبي بكر الرازي. أحكام القرآن. تحقيق: محمد الصادق قمحاوي. دار احياء التراث العربي. بيروت. ط: ١٤٠٥هـ.
٧- ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس.تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم. المحقق: أسعد محمد الطيب. مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية.ط-٣ - ١٤١٩ هـ
٨- الحَرَالِّيُّ أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ أَحْمَدَ بنِ حَسَنٍ الأَنْدَلُسِيُّ. محمادي بن عبد السلام الخياطي، تراث أبي الحسن الْحَرَالِّي المراكشي في التفسير، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي-الرباط.ط/١. ١٤١٨ هـ- ١٩٩٧م
٩- أبو حيان، محمد بن يوسف. البحر المحيط. دار الفكر. بيروت. ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

١٠- الخازن، علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي. لباب التأويل في معاني التنزيل. تحقيق: محمد علي شاهين.١/٢٤٠.دار الكتب العلمية.بيروت.ط١٤١٥ هـ

١١- ابن خالويه، الحسين بن أحمد. الحجة في القراءات السبع.تحقيق : عبد العال سالم مكرم. دار الشروق. بيروت.ط:١٤٠١،٤هـ.

١٢- الرازي؛ محمد بن عمر، مفاتيح الغيب.دار إحياء التراث العربي . بيروت.

١٣- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد. المفردات في غريب القرآن. دار المعرفة. بيروت.

١٤- أبو زرعة، عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة. حجة القراءات. ١/١٦٠ مؤسسة الرسالة – بيروت.ط/٢. ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.

١٥- الزركشي،محمد بن عبد الله بن بهادر، البرهان في علوم القرآن.تحقق :محمد أبو الفضل إبراهيم.ط:١. ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م دار إحياء الكتب العربية.

١٦- الزمخشري، محمود بن عمر. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل. دار الكتاب العربي. بيروت. ط: ١٤٠٧ هـ.

١٧- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ١/٢٣٩.المحقق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق. مؤسسة الرسالة.ط/١. ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م.

١٨- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. ط : دار الفكر. بيروت.

١٩- السمين الحلبي، أحمد بن يوسف. الدر المصون في مزايا الكتاب المكنون. ط:١٤٠٧،١هـ /١٩٨٧م.

٢٠- السيوطي،عبد الرحمن بن أبي بكر.الدر المنثور في التفسير بالماثور١/٥٨١، تحقيق:مركز هجر للبحوث. دار هجر – مصر.

٢١- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد. فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير.دار إحياء التراث. بيروت.

٢٢- الطبري،محمد بن جرير.جامع البيان عن تأويل القرآن. تحقيق أحمد شاكر. مؤسسة الرسالة:ط،١٤٢٠،١هـ/٢٠٠٠م.
٢٣- ابن عادل الدمشقي الحنبلي، أبو حفص عمر بن علي. تفسير اللباب. دار الكتب العلمية. بيروت.
٢٤- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» ١٨/ ٧٩. الدار التونسية للنشر-تونس،١٩٨٤ هـ.
٢٥- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل.مسند الإمام أحمد بن حنبل.المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون. مؤسسة الرسالة ط - ١- ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م
٢٦- ابن عطية – أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط/٥٢، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١.
٢٧- أبو عيسى الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة. سنن الترمذي.تحقيق وتعليق:أحمد محمد شاكر وآخرون. الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر. ط-٢ ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م
٢٨- ابن فارس.أحمد بن فارس بن زكريا.معجم مقاييس اللغة. دار الفكر. ط: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
٢٩- أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزيء الكلبي.التسهيل لعلوم التنزيل. تحقيق:عبد الله الخالدي.الناشر:شركة دار الأرقم.بيروت ط:١- ١٤١٦ هـ
٣٠- القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق. محاسن التأويل. المحقق: محمد باسل عيون السود. دار الكتب العلميه – بيروت.ط/١. ١٤١٨هـ.
٣١- القرطبي،أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر.الجامع لأحكام القرآن. دار الكتب المصرية.القاهرة.ط:١٣٨٤:٢هـ/١٩٦٤م.

٣٢- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب.التفسير القيم، ٥٤٩/١. المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان،دار ومكتبة الهلال-بيروت.ط-١-١٤١٠ هـ.

٣٣- ابن كثير، إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم. دار طيبة للنشر والتوزيع. ط:١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

٣٤- مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري. صحيح مسلم.دار إحياء التراث. بيروت.

٣٥- ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب. دار صادر. بيروت.

Denotation of the Qur'anic Expressionsand Its Influence onEducation and Morality

Case Study: the Story of the Wife of Imran and Her Daughter

Abstract

This paper studies denotation of the Qur'anic expressionsin the verses that mention the details of the story of the Wife of Imran and her daughter, Mary. The article studies the denotation of the expressionsof the Qur'anic text in this story and its educational and moral influenceon Muslims. Indeed, the Qur'an is called "The Light", and the studied verses reveal the reasons for giving the Qur'an such a name that holds both educational and moral values.